



ربنا عوض

الموت والانبعث في شعر خليل حاوي

فيقول : (« الطريق » ، العدد الاول ، ك ٢ ، ١٩٧١ ، بيروت ، ص ٩٢ - ٩٦) :

(« وفي مجال المضمون الشعري ، كان الاصيلون من الشعراء المحدثين يعانون قضية المصير العربي ومصير الانسان في عصرنا الحاضر . وقد ادركوا انها قضية ثـورة ورفض وترسيخ لقيم جديدة اصيلة . وقد حاولت ان ابلغ بالثورة والرفض الى الكشف عن حقيقة الفطرة في ذاتنا القومية ، وعن العناصر الحية في تراثنا وتراث الانسان . وفي محاولة كهذه ، يكون المنف وسيلة حتمية لا يتم بدونها هدم المفاهيم الحضارية المتحجرة ، ولا يصير الى اطلاق الحيوية البكر من الكهوف التي احتجنت فيها عبر عصر الانحطاط ، ولا تصدر القيم عن جذور الفرائز ، والدفع الحيوي والتطور الدائم في اصل الوجود . ولعله يصح على الحضارة العربية والشعر العربي في المرحلة الحاضرة ، رأي الشاعر الايرلندي سنج : ان على الشعر ان يكون عنيفا متوحشا قبل ان يكون انسانيا او جماليا . لقد ادى بي الرفض الى اكتشاف قيم الحضارة من جديد . وكانت تجربة شبيهة بالاشراق الصوفي تجلى فيها الحاضر ماضيا والانبعث المقبل مبرما ينسخ الحاضر . غير ان التجربة التي عانيتها فيما بعد تكشف عن رؤيا مفاجئة تنفي ما اكدته قبل وتشير الى اننا لسنا في زمن يشارف الانبعث الاصيل . وكان بعض النقاد قد نعنتني (« بشاعر الانبعث الاول ») فلم يمنعني ذلك من الاخلاص لبقين التجربة والرؤيا ، فاعلنت ما تكشف لي : ان ما يدعى بالانبعث ليس سوى تكرار لترسبات عصر الانحطاط ، وليس عودة الى ينباع الحيوية في الفطرة الاصيلية » .

كان خليل حاوي يعبر عن حالة من العبث الوجودي في القصائد الاولى من (« نهر الرماد ») ، وكان يعاني الموت الحضاري في الشرق والغرب : (« لم ير غير طين ميت هنا ، وطين حار هناك . طين بطين ») ، كما يقول في قصيدة (« البحار والدرويش ») . ولكن القصائد الاخيرة في هذا الديوان تحمل رؤيا الشاعر بالانبعث بعد موت طويل . فكانت قصيدة (« بعد الجليد ») بنشيدتها : « نهر الجليد ، وبعد الجليد ، تعبيرا عن معاناة الموت والانبعث بما هي أزمة ذات وحضارة وظاهرة كونية . ويفيد الشاعر من اسطورة تموز وما ترمز اليه من غلبة الحياة والخصب على الموت والجفاف ، واسطورة العنقاء التي تموت ويلتهب رمادها فتحيثا ثانية وبذلك ترمز الى تجدد الحيوية ، وغلبتها على العمق والموت ، يقول :

ان يكن ، ربا ،

يواجه الانسان العربي المثقف مأساة الخيبة في عصرنا هذا ، بعد ان كشفت آمال هذا الجيل في بعث الحضارة العربية عن سراب . فقد عاش الجيل الماضي مرحلة آمن انها حبلى باحداث جسام ستولد الانبعث الجسدي للحضارة العربية . وكان الانبعث يقتضي صهر الحضارة الحديثة في الذات الاصيلية الاولى ، باضفاء الاصلة على كل ما هو دخيل . وقد كان على الرعيل الماضي ان يتفهم واقعه الحاضر ، وان يتمثل التراث الغربي ، وان يعيد تقويم التراث العربي حسب معطيات الحضارة الحديثة ليولد النهضة العربية . ولكن الجيل السابق كان - بشكل عام - يفتقد الرؤيا التي تفجر الحيوية ، وقد كانت نظره سطحية بالنسبة الى هذا الموقف الثلاثي الابعاد ، اذ اخذ بهوامش الحضارتين الغربية والعربية ، ولم يستطع ان يتفهم واقعه ، وبذلك لم تتفاعل هذه الواجهة الثلاثة ، فلم يتولد الانبعث الحضاري الاصيل . ولكن الانسان العربي في هذا الجيل أحس في بعض اللحظات انه على عتبة فجر جديد ، ومن هنا انطلقت الرؤيا التي بشرت بالانبعث . ثم كانت المأساة حين كشفت الرؤيا عن سراب ، وحلت فجيعتان : الاولى هي ان الواقع لم يتغير وفقا للرؤيا ، والثانية سؤال يتأمل الضمير : كيف تكذب الرؤيا ، مع ان يقين الرؤيا يعطو على يقين الواقع ؟ هنا فقد هذا الجيل الايمان بالانبعث ، ولم يكن لديه ايمان غيبي يهرب اليه من مأساة الواقع ، فدار في حلقة مفرغة من اللاجدوى والعمدية .

وبما ان الشعراء هم ضمير الامة ، فانهم اول من يعيش المأساة . وقد التزم خليل حاوي ، احد رواد الحركة الحديثة في الشعر العربي ، بقضايا المصير العربي وعبر في نتاجه الشعري عن الانبعث الحضاري الذي عاشه على مستوى الرؤيا لا الواقع ، ثم عن فجيعته بالرؤيا التي كذبها جمود الانحطاط ودوران صورته المتكررة في دوامة اللاشيء . وقد جاءت دواوينه الثلاثة : (« نهر الرماد ») (١٩٥٧) ، و (« الناي والريح ») (١٩٦١) ، و (« بيارد الجوع ») (١٩٦٥) ، وقصيدته الاخيراتان (« الام الحزينة ») التي كتبها بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ، وقصيدته الاخيرة (« صباب وبروق ») - تعبر عن تجربة الشاعر في الرؤيا الحضارية ، ثم فجيعته بعد ان كشف الواقع زيف الرؤيا . ونلاحظ من العناوين التي اختارها الشاعر لدواوينه طبيعة الرؤيا التي يعبر عنها خليل حاوي : (« فنهر الرماد ») ، و (« بيارد الجوع ») يرمزان الى الموت والاضمحلال ، بينما يرمز عنوان (« الناي والريح ») الى انتفاضة القيامة . ويعبر خليل حاوي عن التزامه بقضية المصير العربي

لا يحيي عروق الميتينا

غير نار تلد العنقاء ، نار

تفتدى من رماد الموت فينا

في القرار ،

فلنمان من جحيم النار

ما يمنحنا البعث اليقينا :

أما تنفض عنها عنف التاريخ

واللعة ، والغيب الحزينا

الساحر الجبار كان هنا ومات ؟

وترمز القصيدة الثانية : « جنية الشاطئ » الى حال البراءة
الاولى متثلة في عجزية تحيا كما تدفعها براكين الحيوية المتفجرة في
داخلها الى الحياة . ويصور الشاعر ألم البراءة امام المعرفة المدعية ،
اذ تحولت العجزية ، رمز البراءة والحيوية ، الى شطاء بعد الاحتكاك
بالحضارة الزليفة التي تقتل الحيوية .

أما قصيدة « لعازر عام ١٩٦٢ » ذروة هذه التجربة الشعرية ،
فهي رمز لمأساة الامة العربية في معاناتها للانبعث المشوه الذي هو
اقسى من الموت . يستعير الشاعر شخصية لعازر من الانجيل حيث
مات لعازر وبعثه المسيح بعد ثلاثة ايام من موته . ولكن شخصية
لعازر في القصيدة تكتسب ابعادا جديدة اذ تمثل القصيدة مأساة
الموت والانبعث المشوه للحضارة العربية ، وبذلك يتحد العجزية
بالكلي ، والحسي بالجرد ، ويتمثل التاريخ بكليته في الرمز الشعري ،
وتصهر الرؤيا الذات بالموضوع فينشأ الرمز الحسي الكلي كما اسماه
هيكل ، فيكون نموذجا اصليا هو الراسب السوري لتجربة الامسة
باسرها ، بل لحقيقة النفس البشرية التي عبرت عن نفسها في الاساطير .
ومن خلال تفاعل شخصية لعازر مع الشخصيات الاخرى في القصيدة ،
وبخاصة زوجته ، ينمو الرمز عبر الاناشيد والصور الحسية التي
تحمل ابعاءات رمزية ، اذ يتمتع الرمز المحوري بكيان ذاتي ، وبحرية
الحركة تبعا لطبيعته الخاصة . ويرمز لعازر الى الشعب العربي الذي
يماني آلام الانبعث المشوه بعد ان يعصى عليه تغيير الواقع المتهرب ،
فيتحول من مناضل الى عميل . ومن خلال تفاعله مع زوجته يجرها الى
جحيمه ، فينتصر الشر على الخير ، ويموت كل أمل بانبعث اصيل .
فشهوة الموت متحكمة في نفس لعازر ، حتى ان المسيح ، رمز القوة
القيسية ، يعجز عن بعث الحياة فيه ، لان المعجزة القيسية تأتي من
الخارج ، بينما الانبعث الاصيل هو تفجير من اعماق الذات . وهذه
صورة لموت الحضارة العربية ، اذ ان الزوجة ترمز الى الحضارة التي
انجرت الى جحيم القبر . ولذلك كانت قصيدة « لعازر عام ١٩٦٢ »
قصيدة الهزيمة قبل الهزيمة كما يقول الشاعر ، أي انه تنبأ بهزيمة
١٩٦٧ قبل حدوثها ، اذ ان الهزيمة هي النتيجة الحتمية للانحطاط .
وبذلك تكون القصيدة صورة لتفاعل الانسان والحضارة .

تظهر « لعازر عام ١٩٦٢ » وكأنها عمل درامي لانها لا تعتمد السرد
القصصي ، بل الحدث الذي تتطور بموجبه الشخصية وتعبّر عن
عالمها الداخلي الذي تعيشه ، وتنمو القصيدة من خلال تفاعل
الشخصيتين الرمزيين : لعازر وزوجته ، ومن خلال تطور شخصيتهما
في سبعة عشر نشيدا يلعب عنوان كل منها دور السرد القصصي الذي
اسقطه الشاعر واكتفى بالنزوات الشعرية . وسندرس القصيدة من
خلال الصور التي استخدمها الشاعر لتصوير نمو كل من شخصيته
الرئيسيتين . نلتقي لعازر في النشيد الاول وهو يصرخ طالبا من
حفار القبور ان يعمق حفرته الى قاع لا قرار له ، فيقول :

عمق الحفرة يا حفار

عمقها لقاع لا قرار

يرتمي خلف مدار الشمس

ليلا من رماد

وبقايا نجمة مدفونة خلف المدار

فلاحظ رفض لعازر لصور الحياة ، وهربه منها الى صور العقم
والدمار ، الى ما وراء مدار الشمس حيث لا حياة ، اذ ان الشمس
هي مصدر كل حياة ، والى ليل الرماد ، وهو صورة للدمار وبرودة
الموت التي يشتهيها لعازر . وتصبح رحمة المسيح ملوونة لانها تسمى
الى احلال الحياة محل الموت :

صلوات الحب والفضح المنفي

ويكمل خليل حاوي تعبيره عن حالة النشوة برؤيا الانبعث فسي
قصائد « الناي والريح » حيث تبلغ النشوة ذروتها في قصيدة
الديوان الاخير : « السندباد في رحلته الثامنة » ، اذ يثور السندباد
على الحضارة السلفية الفاسدة ، وتجعله الرؤيا نبي الانبعث الحضاري
الجديد ، فيقول :

واليوم ، والرؤيا تقني في دمي

برعشة البرق وصحو الصباح

بفطرة الطير التي تشتم

ما في نية الغابات والرياح

تحس ما في رحم الفصل

تراه قبل ان يولد في الفصول

تفور الرؤيا ، وماذا

سوف تأتي ساعة ،

اقول ما اقول

ولكن الواقع المتحجر فجع الشاعر بالرؤيا ، فجاء ديوانه « بيارد
الجوع » صورة رائعة لهذه الفجعة التي ما زال يعيشها الشاعر حيث
عبر عن مأساة هذا الجيل بالموت المتكرر الذي تعيشه الحضارة العربية
في قصيدته الاخيرة « صباب وبروق » حينما يقول :

انت يا ما من غورت

في جوفه الرؤيا وغصت

فاستحالت جمرة ملتهمة

اكلت اعصابه ، مصت دمه

تلك رؤيا اختنقت

في الكلمة

حين ثارت ، وتحدث

لعنة ما برحت تشتد

من جيل لجيل

تتمشى في خلايا جيلك

المعجون من وحل الوحول

لعنة الارض البغي الهرمه

هذه الابيات تختصر مأساة الجيل العربي المعاصر ، حين هزمت
لعنة الموت رؤيا الانبعث التي تحولت الى جحيم داخلي . وبدل ان
يحمل المستقبل آملا بالانبعث تزداد اللعنة من جيل لجيل ، ويرى
الشاعر ان الحضارة ليست هرمة فحسب بل هي بغي تتاجر بجسدها
لتعيش حياة الرذيلة .

و « بيارد الجوع » بقصائده الثلاث يعبر عن تجربة شعريية
واحدة كانت قصيدة « لعازر عام ١٩٦٢ » ذروتها . وقد عبرت القصيدة
الاولى : « الكهف » عن مأساة العقم والفراغ والمعجز عن تغيير الواقع
الذي تحجر فيه الزمن واستحالت فيه السدقات الى عصور ، ويصرخ
الشاعر بحرقة اللتان :

وهل اصبح بمن يرجي المعجزات

عبر صحراء تطفيها الثلوج
عبثا فتشت فيها
عن صدى صوتي وعن وجهي
وعينيّ وعمري

هنا تصبح الزوجة مدار الفاجع ، فقد كانت تتوقع ان يبعث زوجها حيا ، ولكن الحفيظة صدمتها حين التقت بظل انسان لا بالانسان الذي كانت تعرفه . ونلاحظ ان الشيخ أسود لان الحداد ما زال يعم كل شيء ، حتى ظل هذا الانسان سيطر الموت عليه فهو « زورق ميت » ما زال يحمل في عينيه ظلام القبر . وحجرتنه شهوة الموت فعساني من الانبعاث المشوه وهو أفسى من الموت . وما يزيد من وقع الفجيعة في هذا المقطع ان الزوجة تتفجر جيـسوية « زوبعة من وهج نهدي وشعري » ، وتدوب صفاء واشراقا « مرآة صديري » ، وقد فرض على مثال الصفاء والحيوية معايشة مثل الابتكار والموت ، فنشأ عن هذا الموقف الدرامي مأساة الزوجة بزوجها : الحضارة بأبنائها . وتصور الزوجة رعبها أمام هذا الرجل الغريب الذي فرض عليها ان تماشره ، فاذا هو سادي يشتهي رعب المرأة وآلامها ، فتقول :

كان من حين لحين
يعبر الصحراء فولاذ محمى
خنجر يلهث مجنوناً وأعمى
نمر يلسعه الجوع فيرغي ويهيج
يلتقيني علفا في دربه
أنثى غريبه
يشتهي وجهي ، يشبع
من رعي نيوبه
كنت أسترحم عينيه
وفي عينيّ عار امرأة
أنت تعرت لقريب

يفقد لعازر انسانيته هنا ، وتتجرد الحيوانية فيه وتتمثل عارية في صورة « الفولاذ المحمى » ، و « الخنجر المجنون والاعمى » ، و « النمر الجائع » الذي يسعى الى اشباع « نيوبه » ، فتصبح المرأة « علفا » لهذا الحيوان . وتشعر الزوجة انها بقيّ تضاجع غريبسا ، فيتجمد في عينيه شعورها بالعار ، وتنتظر برعب دون ان تقوى على الشكوى . وتصاب الزوجة بهذيان مجنون في النشيد الخامس وتلجأ الى دنيا الحلم لعلها تنسى المأساة التي تعيشها ، وتحاول ان توهم جارتها وان توهم نفسها قبل الجميع بأن زوجها قد بعث بعثا صحيحا ، ولكنها تعرف في قرار نفسها ان ما تقوله هو مجرد هذيان ، لذلك نحسّ المرارة والسخرية في كل ما تقول :

جارتني يا جارتني
لا تسأليني كيف عاد
عاد لي من غربة الموت الحبيب
حجر الدار يعني
وتفني عتبات الدار والخمر
تفني في الجرار
وستار الحزن يخضر
ويخضر الجدار
عند باب الدار ينمو القار ، تلثم الطيوب
عاد لي من غربة الموت الحبيب

ولكن الزوجة لا تقوى على المضي في خداع نفسها فتسلم بفجيعة الواقع وتنسى صور الانبعاث والفرح التي عبرت عنها باللون الاخضر

في دموع الناصري
أترى تبعث ميتا
حجرتنه شهوة الموت
ترى هل تستطيع
أن تزيج الصخر عني
والظلام اليأس المروم
في القبر المنيع
رحمة ملعونة أوجع من حمى الربيع
صلوات الحب يتلوها صديقي الناصري

هنا تعارض صور الانبعاث الاصيل المتمثلة في « الفصح الفني » صورة الميت الذي حجرتنه شهوة الموت ويعلم لعازر ايمانه بعجز المسيح عن بعثه لان شهوة الموت أقوى في ذاته من أية قوة غيبية تسعى الى منحه الحياة . وهنا ينتصر عنصر الشر وتقلب القيم فتصبح الرحمة ملعونة مؤلمة ، ويرفض لعازر صورة الحب المتمثلة في صلاة الناصري ، لان الحقد المتحكم به معادل لشهوة الموت التي حجرتنه . ونلاحظ ان الخنجر ليس في داخل لعازر فحسب ، بل في كل ما يحيط به كالصخر والقبر المنيع الذي لن تصل اليه ارادة الحياة ، وحتى الظلام يتيسر ويتراكم فوق الميت الذي يعاني الموت الكسلي الذي لا حياة بعده . ويعجز المسيح عن احداث المعجزة وتنهق المأساة وتتلخص في قول لعازر :

لم يزل ما كان من قبل وكان
لم يزل ما كان

فالمأساة أو « الرؤيا اللعينة » هي في استمرار الوضع الفاسد الذي يعصى على كل اصلاح ، وبعشق الموت الكلي ، ورفض الانبعاث . ويقف لعازر عاجزا مخذولا امام الجماهير التي يملكها دولا ب الزمسن الناري فتحترق في دوامة فارغة ، فيهرب لعازر من هذه الرؤيا اللعينة الى ظلام القبر العميق :

واذا صوت يقول
عبثا تلقي ستارا أرجوانيا
على الرؤيا اللعينة
وبكت نفسي الحزينة
كنت ميتا باردا يصبر
أسواق المدينة
الجماهير التي يملكها دولا ب نار
من أنا حتى أردّ النار عنها والدوار
عمق الحفرة يا حفار
عمقها لنفاع لا قرار

ويكون الموت هو المهرب الوحيد امام البطل الذي يرى المأساة ويعجز عن القضاء عليها .

ونلتقي في النشيد الرابع بزوجة لعازر بعد أسابيع من بعثه فنحسّ فجيعة الزوجة بزوجها الذي بعث بعثا مشوها ، وتعب الزوجة عن فجيعتها بقولها :

كان ظلا أسودا
يفغو على مرآة صديري
زورقا ميتا
على زوبعة من وهج
نهدي وشعري
كان في عينيه
ليل الحفرة الطيني يدوي ويموج

الذي يرمز الى عودة الربيع اي القيامة ، وصورة الانتصار في الفار
الذي ينمو على باب الدار . ونعيش الفجيعة بارتدادها الى الواقع :

ولماذا عاد من حفرتة

مينا كئيب

غير عرق ينزف الكبريت

مسود اللهب

فتعود الى معايشة هذا الميت الغريب الذي ينزف خرابا ودمارا .
وتتطور المأساة وتعمق اكثر في التشبيـد السادس « الخضر
المفلوب » ، حيث يعود الشاعر الى أسطورة الخضر الذي يلقب بالتنين،
ولكن لعازر هنا هو الخضر المفلوب لان التنين قد هزمه ، وينتصر
بذلك عنصر الشر على عنصر الخير ، ويقف البطل المهزوم عاجزا
امام الواقع المظلم الشرير . وتعاني الزوجة خيبة زوجها وعجزه
فتقول :

طالما عاد الى صدري مرار

عاد مقلوبا جريحا لن يطيب

ومدى كفيه أشلاء من الحق

مدى جبهته أشلاء غار

فجرح لعازر « ان يطيب » ، وهنا الفجيعة ، اذ انه لن يتمكن
من تغيير الواقع الفاسد المتعجر . ونرى مع لعازر « أشلاء من
الحق » و « أشلاء غار » أي تشويها للحق والفار ، فانتصار صاحب
الحق أصبح مشوها . ونفرّ الزوجة مرة أخرى الى الماضي المجيد
لتعوض عن فجيعتها بالحاضر المخدول ، ونعيش لحظات انتصار
لعازر البطل :

أو صدى الاجراس

من جيل الى جيل يدوي

كان سيفا مورقا

جرحا وينبوعا وكان

مبحر سكران ملتب بزهو الارجوان

تتدافع الرموز هنا لتعبر عن أمجاد الماضي وبطولاته ، فالاجراس
تقرع من جيل الى جيل وهي رمز لفرح الانتصار ، كما ان السيف
المورق هو رمز البطولة التي تبعث الحياة في الطبيعة بعد جفاف
الشتاء وموته . ويرمز الجرح والينبوع الى قدسية الشهادة في سبيل
المطلب الاعظم . ويواصل لعازر السير في مسوك النصر نشوان
بانتصاره يجر الثوب الارجواني الذي يلبسه البطل المنتصر . ولكن
الزوجة تستيقظ مجددا على فجيعة الحاضر وتعيد النشيد : « كنت
أسترحم عينيه ... » .

في النشيد الثامن نلتقي زوجة لعازر بعد سنوات حيث نجد
انها تنجرت رويدا رويدا الى هاوية زوجها ، بعد ان عجزت عن انتشاله
من حفرتة ، وهي تعاني هنا أزمة نفسية حادة لا تجد خلاصا منها
الا بالحو الكلي وتعبر عن حالتها هذه بقولها :

غَيْبَنِي فِي بِيَاضِ صَامَتِ الْأَمْوَاجِ

فِيضِي يَا لِيَالِي الثَّلْجِ وَالغُرْبَةِ

فِيضِي يَا لِيَالِي

وَأَمْسَحِي ظِلِّي وَأَنَارِ نَعَالِي

فهي تعيش في غربة تحيط بها ليالي الثلج ، والثلج يرمز الى
العقم واليبوس . ونلاحظ ان ما تطلبه زوجة لعازر هو اكثر من الموت.
انه الحو الكلي والعمدية ، وقد أصبحت ظلا بلا جسم كزوجها .
وهي تمنى ان يمحو الثلج حتى الظل الذي تبقى منها ، وكل انسر
يذكر بوجودها حتى آثار النعال . وتصور الزوجة الالم الذي تعانيه

بقولها :

امسحي برقا أداريه

أداري حية تزهر في جرحي وترغي

شرر الاسلاك في صدغي

من صدغ لصدغ

أصبحت الزوجة هنا جريحا كزوجها ، ولكن ألمها أشد لان الحية
رمز الشر تنمو وتكاثر في جرحها ، وترمز الى آلامها النفسية التي
تتآكل رأسها وتكاد تشقه بشرر الاسلاك الذي يلهب صدغيها . وتصل
الزوجة الى حالة انهيار كلي في النشيد التاسع ، وتعبر عن رغبتها
بالانتحار . ولكنها في دوار وحالة لا وعي لا تستطيع ان تفهم ماذا
يجري حولها فتقول :

كيف كانت تبحر الدرب

وفي الدرب نفوب

كيف كانت تنهطى الارض

تجري تحت أقدامي الدروب

تلتقي في خندق يمحره الوهج

وايقاع القطار

يرسل الدخنة

شعرا معولا عبر القفار

أترى مرت وما مرت

على جسمي دواليب القطار

لم أزل أسمع

في مجرى شراييني دبيبه

الدواليب الدواليب الرهيبه

فحالة الدار التي تعيشها توهمها بان الارض تجري تحت
قدميها ، وتحس بان كل ما حولها يلف ويدور ، فتشعر برغبة في
الارتقاء تحت عجلات القطار لتتخلص من هذيانها وآلامها النفسية ،
لكنها لا تدرك اذا كانت قد انتحرت أم لا ، لان الموت والحياة اللاواعية
التي تحياها عندها سيان . ولكن شهوة الانتحار المتمكنة منها هي
الانتحار ، خاصة وان دواليب القطار الرهيبة تملك أحشاءها من
الداخل . وتستمر الزوجة في حالة الفيوبية فيخلق لا وعيها حياة
غريبة تتحول فيها الاشياء الى أشباح ويمشي فيها الاموات ويظهر
المسيح في دوامة اللاوعي فتخطبه الزوجة بقولها :

جئنتي الليلة ممسوحا رماديا

وطيفا يتراءى عبر وهج الحس

حينما وبتيه

كنت طيفا قبل أن يمتصك

القبر السفيه

عبثا لن أدفع الإصبع

في فجوة جرح تدعيه

.. ان تكن جوعان حدق ..

ما غريب ان يجوع الطيف ،

ان تكسر كفتاه الرغيف

أسهر الليل أعدّ الزاد

للموتى الطيوف

قرع الناقوس والتمّ الضيوف

يصبح المسيح هنا بالنسبة لزوجة لعازر طيفا غائما لا تستطيع
أن تتبينه ، فعينا يتراءى وبتيه حينما آخر . فزوجها الظل جعلها
ترى كل شيء ظلا ، بما في ذلك نفسها . وفي حالة الدوران التي
تعيشها تقف موقف التحدي والساخر بالمسيح . وفي حالة الجنون
هذه تصبح الحياة بأسرها كهفا للشباح ، ويصبح الناس كلهم

قطرت رحيقه
في مروج الجمر مرغت عروفه
كان عبر السام المحموم
يمتد الصقيع

هنا تعاني الزوجة برود زوجها وعجزه وهي في ذروة الاحتراق
بالشهوة ، وتصبح زورقا جانحا في شاطئ الشهوة المحروق . وتحاول
اغراء الرجل الذي يقابل فورانها ببرود اللامبالاة . وترمز بالخمير
والجمر الى محاولة ايقاظ الشهوة ، ولكن دون جدوى ، فيمتد
الصقيع وتعمق المأساة ، اذ يتحول لعازر من خضر مغلوب
الى تنين :

ميتا خلفته في الدار
تنينا صريع
يمصر اللذة من جسم طري
ويروي شهوة الموت وغله
ليس يشتف سوى المهر
متى انحسرت له الجنات
في اعضاء طفله

هنا يتحول البطل الذي عجز عن تمييز الواقع الاليم الى تنين
هو رمز الشر الذي كان يحاربه : تحسول من مناضل الى عميل ،
وتحول من محب الى فاسق ، فهو لا يروي شهوة زوجته ، بل يحاول
اغراء الفتيات الصغيرات ، فيرفض الحلال ويتجه الى كل ما هو
محرم استجابة لعنصر الشر الذي انتصر فيه . ويتحول لعازر الى
مجرم تلذه صور جريمته :

ميتا كان
وادري كيف يزهو ميت
يزهو يرش الضحك الزهر
في جو الوليمه
لذة الجلاذ تنصب على الكاس
متى طالعه من خبايا
الكاس اشباح الجريمة
جسد رصعه السوط ومحمر الحديد
بالورود السود والحمر
وغدران الصديد

وكان الشر المنتصر في ذات لعازر يدفعه الى حالة من الجنون
يقف فيها مقهقها امام صور جرائمه التي تسيطر على لاوعيه ، فيحاول
ان يهرب منها بادمان الخمر ، ولكن هذه الصور تنتصر عليه ، فتطالعه
في الكاس ، فيفقد كل شعور بالذنب أو بالالم ، ويلتذ بصور جرائمه
حتى النسوة . وتكرر صور الجريمة : التعذيب بالسوط والحديد
المنتهب . ويرى لعازر الجلاذ آثار التعذيب وورودا حمراء وسوداء
لانه يلتذ بالنظر الى آثار جريمته . وكذلك يرى الصديد السائل
من جسد المذب غدرا ، وبهذا يصبح جسد المذب كونيا فيعظم
حول الجريمة وتزداد لذة الجلاذ . ويلجأ لعازر الى الكذب والخداع
حين يحاول ايهام الناس بانه ما زال ذلك البطل المترفع بينما
قد أصبح :

ماردا عاينته يطلع
من جيب السفير

اشباحا وموتى ، وتميش هي حياة الموت بين الطيوف ، فتعد لهم
الطعام ويصبحون ضيوفا عندها . ولا تستطيع الزوجة ان تلجأ الى
الصلاة لانها اصاعت ايمانها ، فتتعمق بهذا الموقف مأساتها وتشتد
سيطرة العنقد في قلبها ، ويزيد احساسها بالفجيعة لانها لا تستطيع
ان تهرب منها الى ايمان غيبي يشفي النفس من آلام الواقع ، وهي
تؤمن ان الاله لا يستطيع ان يفهم آلام البشر لانه من عنصر روحي
مفابر للعنصر البشري الذي يعاني الآلام الجسدية . وتذكر الزوجة
آلام مريم الجدلية التي باحت بشهوتها الجنسية للمسيح ، وحاولت
اغراءه ، ولكنه ظل مترفعا عن الشهوة الحسية سابحا في عالم
الملائكة :

يوم انك مريم ، يوم تداعت
زحفت تلهث في حمى البوار
وازاحت عن رياح الجوع
في ادغالها صمت الجدار
وسواقي شعرها
انحلت على رجليك جمرا وبهار
لم يعكر صحو عينيك التماع
السوط والحية
في صلب الذكر
مر في الصحو ملاك
وانطوى يدمع في ظل القمر
حيث لا يردد جوع مارج بالزفرات

فتكون صور الشهوة المجتاحة التي تقابلها صور البراءة والطهر
رمزا لفجيعة البشر بالآلهة ، ولفجيعة زوجة لعازر - غير المؤمنة -
بالمخلص ، فتحكم على نفسها بان تشرب كأس العذاب حتى الثمالة .
وتستمر الزوجة في معاناتها لحالة الجنون التي تعيشها حيث
تفلق على صور الشهوة المكبوتة في لا وعيها والتي عجز زوجها عن
اشباعها . فهي تتحول من صحراء شهوة يسيطر عليها الفراغ والعدم
الى شجرة تحترق باعتكار الشهوة :

تنطوي صحراء ساقى على
غصات شمس تتلوى
في ظلام حجري
تمخر الفصات في ساقى
الياف الخلايا والجذور
الدخان الموحد المحرور
يجري من غصوني وثماري
في اهاليج البراري

ففي فراغ اللاوعي تتلوى شمس الشهوة ، وتتألم كل ذرة في
كيان هذه المرأة لعدم اشباع الشهوة المكبوتة ، فتتحول المرأة الى
شجرة تحرقها نار الشهوة ، وتتحول الى دخان تلتطخه وحول الخيطية.
وكان هذه الشهوة المحرمة التي تكبتها انفجرت في داخلها لتحطم كل
التقاليد المتحجرة والقيم البالية التي تدفعها لكبت شهوتها . وتصور
الزوجة خيبتها بزوجها العاجز بقولها :

حسرة الانثى تشهت في السرير
مهدت شهوة نهديها
تھاوت زورقا يلهث في شط الهجير
خلف بعل لا يجير
من بهار الهند والفلفل

وتتمثل فرسا يصهل جائعا ومثالا في غيبوتها المجدبة الخاوية .
وتحاول الزوجة ان تطفئ نار شهوتها فتحلم انها تستسلم لهذا
الغريب البربري علته يروي شهوتها البدائية ، وهذا الغريب ليس
سوى زوجها الذي تراه في الحلم كما تمنى ان يكون : اذ ينمو أخضر
الأعضاء ، وكان هذا هو الانبعاث الحقيقي الذي يستطيع ان يذيب
الظلام الحجري وينطلق بالوهج الحبيس ، فاللون الأخضر هو اللون
الغالب على الربيع الذي يرمز الى الانبعاث . ولكن الزوجة تستيقظ
من نومها وتعلم ان الحلم لم يخمد نار شهوتها وانما زادت خبيسة
الواقع استعارا ، فتصل الزوجة الى حالة من الجنون رهيبية ،
فتشعر انها تريد ان تحطم كل شيء ، وان تحيل العالم الى خراب ،
وان تلتذ بكل حاسة من حواسها الخمس بطعم الدمار والخراب ويطعم
دمائها ويطعم التراب :

الحواس الخمس فوهات مجامر
تشتهي طعم الدواهي والخراب
تشتهي طعم دمي
طعم التراب

فهي تلتذ بطعم التراب والدم وتشتهي كل صور الدمار ، ثم
تفقد وعيها ، فلا تعود تدري من هي :
ينطوي جسمي على جسمي
ويلتف دوائر
ثم ينحل لأجسام
تمتحيها وتبينها الظنون
هنا تفقد الزوجة هويتها ، وتضيق ملامح ذاتها فتتخذ أشكالا
متعددة ، وصورا مختلفة يولدها لأوعياها ثم يعود فيهدمها ويولد صوراً
جديدة . فترى ذاتها أولا عبر ضباب الحلم جثة طافية على نهر
حزين :

في ضباب الحلم
جسم شاحب يطفو على نهر حزين
جبهة يغسلها ظل شعاع
ويوشي في جبال الليل
أطراف الشراع

صدر حديثا عذابات احمد بن ماجد

للشاعر البحريني
يعقوب المحرقى

هنا الوردة . هنا نرقص

للقصاص البحريني

امين صالح

منشورات دار الآداب - بيروت

بالاشتراك مع اسرة الادباء والكتاب في البحرين

واميرا يتاله
صدىء السيف وما أمطر من صبح
مدى الاردن والكنج ودجله
عامريا يتوله
يعصر اللذة من جسم طري
ويروي شهوة الموت وغله

فلمازدر يحاول أن يدعي انه أمير بطل بينما السيف رمز البطولة
قد صدء لدم استعماله . ويحاول أن يدعي العذرية في الحب ،
بينما هو فاسق لا يرضى الا بالشهوة المحرمة . وبذلك يكون لمازدر
قد سلم بانتصار الشر فيه ، وحاول ان يحقق الغير زورا وخداعا
بعد ان تحول من خضر الى تين .

وتقف الزوجة عاجزة مثالة امام هذا الزوج الفاسق المخادع ،
وما زالت تعاني آلام شهوتها المكبوتة ولا تدري لمن تتوجه في دعائها ،
فزوجها « لا يجير » ، والمسبح لا يستطيع ان يتفهم الامها لانه من
طبيعة مغايرة لطبيعة البشر ، فلا تجد مهربا الا في طلب المحو الكلي :

غيبيني وامسحي ظلي
وأثار نعالتي
يا ليالي الثلج فيضي يا ليالي ،
امسحي ظلي أنا الانثى
بكت صلت وصلت
ما ترى تفني دموعي والصلاة
لاله قمري ولطيف قمري
يتخفي في الغيوم الزرق
في الضوء الطري
حيث لا يردد جوع مارح بالزفرات

هنا تبكي الزوجة وتصلي ، ولكن ذلك لا يشفيها من الامها
النفسية لانها غير مؤمنة بجسدى الصلاة والبكاء ، فكان الابدان
بالصلاة لا فعل الصلاة نفسه هو الذي يحقق الارتياح والشفاء ،
وكان صلاتها ليست اكثر من فعل بيقاوي لا يتعدى اللسان الى افوار
النفس المتألمة ، فتزيد الصلاة هنا من آلام الزوجة لانها تلجأ الى فعل
لا تؤمن به ، وكأنها تلجأ - هي ايضا - الى خداع النفس وهو اكثر
اياما من خداع الغير . وتلجأ الزوجة الى تفجير شهوتها المكبوتة
في الحلم ، اذ ان ما يرفضه الوعي ، يندفع الى ظلام اللاوعي
ويتجسد في الحلم :

غربة النوم رهيبه
لا مصابيح ، ولا حراس ليل ، لا نجوم
غير جوع الريح والجدران تهوي
وبروق في دمي تزرعها شمس الجحيم
عصب يصهل في غيبوبة الصحرا
وحمي خدري
طالما استسلمت في غربة نومي
لغريب بربري
يتعالى أخضر الأعضاء
من وهج حبيس في الظلام الحجري

ففي ليل لا وعيها الموحش تعصف ريح الشهوة الجائعة ، فتهدم
جدران الصمت والكبت وتنتقل . وتتخذ الشهوة المكبوتة صوراً مدهمة
في ظلام لا وعيها فتتمشا شمس جحيم تزرع البروق في دمهـا ،

هنا تنتحر الزوجة في ليل حلمها ثانية بان تلقي نفسها في
النهر فتغرق ثم تطفو على سطح الماء جثة هامدة وكأنها تسعى بالقاء
نفسها في الماء الى تطهير نفسها من ذنوبها ، أي الى المعمودية .
وترى في الموت راحة عظيمة ، فيبرز ظل شعاع يداعب جبهتها ويزيح
ولو القليل من الظلام المتراكم ، ويوشي أطراف الشراع السذي
سينقلها الى عالم اخر فتتجو من آلام واقعها الرهيب . وتكر الصورة
الثانية فتري نفسها صبية سمراء جميلة وقد لبست ثوب العرس
لنتنظر حبيبها :

وهج نعليّ

يفني ويفني ويفاويه الجنون

مسرحة الارض

متى يمتصها ليل السكون ،

ويفني صحو مرآتي الرفيعة :

ثوب عرسي وغلاتي ونهدي وبريقه

حلوة سمرا رشيقه

تمرج الدرب الى بابي غريقه

في اهازيح الصبايا والطيوب

عاد لي من غربة الموت الحبيب

فهي هنا العروس الفرحة المتفجرة حيوية ونشاطا ، ترقص
وتلأ الدنيا اشراقا ، فتفني مرآتها التي تحتضن خيال المرسوس
السمراء ، وقد لبست الثوب الابيض رمز الطهر والبراءة ، وارتفعت
حولها أغاني الفرح تطلقها الصبايا احتفالا بعرس الصبية السمراء
ولعازر ، الحبيب الذي يمث حيا بعد موته . ولكن الزوجة لا تستطيع
المضي في خداع نفسها بأحلام تناقض الواقع فتصرخ :

خدعة المرأة ، رباها ، وتمويه العيون

ان لي جسما

تملحيه وتبنيه الظنون

هنا تضطر الى الاعتراف بانها ليست تلك العروس السمراء ،
وتضيع هويتها من جديد ، ثم تعترف بالحالة التي وصلت اليها :
فقد وصلت الى حفرة الافعوان لعازر ، وتحولت هي الى افعى ،
وأصبحتا كلاهما ينزفان الكبريت :

انطوي في حفرتي

افعى عتيقه

تنسج القمصان

من أبخرة الكبريت ، من وهج النيوب

لحبيب ينزف الكبريت

مسود اللهب

وتنتهي المأساة بانتصار الشر على الخير انتصارا مبرما ،
فتصل الزوجة الى قبر زوجها ، ويصبحان رمزا للشر : الافعى
والافعوان ، ويحولان الاشياء الى دمار .

تعتبر هذه القصيدة رمزا حضاريا لتفاعل الانسان والحضارة .
فعلى الانسان ان يمد الحضارة بأسباب الحياة والاستمرار . ولكن
الشعب العربي - الذي اتخذ الشاعر لعازر رمزا له - مات وبعث
بعثا مشوها كان عليه وعلى الحضارة العربية اقسى من الموت ،
فتحول الى تقيض كل المناقب التي كان يفخر بها عندما كان شعبا
حيا . وقد جرّ هذا الشعب الميت الحضارة العربية التي كانت
تتفجر حيوية واشراقا الى ظلام قبره بعد ان تمرغت بالوحول وعانت
تحت عجلات الزمن ، وضاعت هويتها وشخصيتها ، الى ان تحولت
الى رمز لكل رذيلة . وهنا ينتصر الشر على الخير ، وتعاني الاقلية
المثقفة - التي ما زالت تشعر بالمأساة وان كانت لا تملك سبيلا الى
الخلاص منها - مأساة الشعب والحضارة ، اللذين وصلا الى موت
لا انبعاث بعده .

ريتا عوض

بيروت

مجموعة غادة السمان

أمنت دار الآداب طبع مجموعة كتب الادبية المبدعة غادة السمان وهي الكتب التالية :

عيناك قدرتي

رحيل المرافيء القديمة

لا بحر في بيروت

حب

ليل الغرباء

متعة ادبية وفنية لكل قاريء عربي